تفسير

سورة الكافرون[١][٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

١. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ . قال جماعة المفسرين[٣] : «لمّا قرأ رسول الله ﷺ سورة النجم بمكة على المشركين ، وألقى الشيطان في قراءته :

---

(١) تسمى المقشقشة ؛ أي المبرِّئة من النفاق ، وتسمى أيضاً سورة العبادة ، وذكر الفخر أنها تسمى المنابذة والإخلاص . انظر : الإتقان ١/ ١٥٩ ، وفتح الباري ٨/ ٧٣٣ ، والتفسير الكبير ٣٢/ ١٣٦ .

(٢) فيها قولان : أحدهما أنها مكية ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، والجمهور . والآخر أنها مدنية ، قاله قتادة ، وأحد قولي ابن عباس ، والضحاك . انظر : النكت والعيون ٦/ ٣٥٧ ، وزاد المسير ٨/ ٣٢٢ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢٢٤ .

(٣) قال بذلك ابن عباس ، والقرظي ، والضحاك ، والسُّدِّي ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومقاتل . انظر : تفسير مقاتل ٢٥٤ب ، وجامع البيان ١٧/ ١٣١ ، ومعالم التنزيل ٣/ ٢٩٢ ، وزاد المسير ٥/ ٣٠٢ ، وتفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٣٩ ، وأسباب النزول ٢٥٨ ، تحقيق أيمن صالح .

تلك الغرانيق[١] العلا عــلى ما ذكرنا[٢][٣] ، طمع مشركو قريش فيه ، وقالوا : إن محمداً (قد)[٤] دخل في بعض ديننا ، فأتوه وقالوا له : تعبد آلهتنا سَــنَةً ، ونعبد إلهك سَــنَةً ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما نحن فيــه كنَّا قد شركناك فيــه ، وأخذنا بحظنا منــه ، وإن كان الذي نحن عليه خــيراً كنت قد شركتنــا في أمرنا ، وأخذت بحظــك منه ، فقال رســول الله ﷺ : «معاذ الله أن أُشرك به غيره» ، فأنزل الله : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٥] ، يعني المستهزئين من قريش» .

---

(١) الغرانيق : الأصنام ، وهي في الأصل الذكور من طير الماء ، سُمِّي به لبياضه ، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقرِّبهم من الله عز وجل ، وتشــفع لهم إليه ، فشبِّهت بالطيور التي تعلو وترتفع في السماء . انظر : لسان العرب (غرنق) ١٠/ ٢٨٧ ، وتفسير أبي العالية ١/ ٢٧٢ ، تحقيق الورثان ، رسالة غير منشورة .

(٢) عنــد قولــه تعــالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج :٥٢] .

(٣) قصة الغرانيق باطلة ســنداً ومتناً ، وقد تقدَّم التعليق عليها في ســورة الحج ، وتناولها كثير من العلماء بالنقد والتجريــح ، والخلاصة فيها ما قالــه الألباني في نصب المجانيق في نســف قصة الغرانيق ١٨ وما بعدها من أن أســانيد القصة على اختلاف طرقها جميعها معللة بالإرســال والضعف والجهالة ، وبــيَّن أنه ليس في أحدها ما يصلح للاحتجاج به ، ولا ســيما في أمر خطــير كهذا ، ثم بيَّن أن مما يؤكد ضعفها ، بل بطلانها ما في القصة من نكارة لا تليق بمقام النبوة والرسالة . وممن أبطلها أيضاً ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٣٩ ، وابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٣٠ ، والشوكاني في فتح القدير ٣/ ٤٦١ ، والشــنقيطي في أضواء البيان ٥/ ٧٣٠ . ومَن أراد الاســتزادة فليراجع ذلك في تفسير أبي العالية ٢/ ٢٧٢-٢٧٦ ، تحقيق نورة الورثان ، رسالة غير منشورة .

(٤) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٥) ممن قال بمعنــى هذه الرواية وهب ، وعكرمة عن ابن عباس ، وســعيد مــولى البختري ، ومقاتل ، وعبيد بن عمير . انظر : تفسير عبدالرزاق ٢/ ٤٠٣ ، وجامع البيان ٣٠/ ٣٣١ ، وزاد المسير ٨/ ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، وبحر العلوم ٣/ ٥٢٠ ، ولباب النقول ٢٣٧ ، والدر المنثور ٨/ ٦٥٥ ، وقد نسبه السيوطي إلى ابن أبي حاتم والطبراني . وقال بهذه الرواية أيضاً الثعلبي في الكشــف والبيان ١٣/ ١٦٩ب ، وانظر : معالم التنزيل ٤/ ٥٣٥ ، والتفســير الكبير ٣٢/ ١٤٤ ، وأســباب النزول ٤٠٥ ، تحقيق أيمن صالح . قال ابن حجر في فتح الباري ٨/ ٧٣٣ في الرواية التي من حديث ابن عباس : «إن في إسناده أبا خلف عبدالله بن عيسى ، وهو ضعيف» .

٢. ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ . قال ابن عباس[١] (ومقاتل[٢])[٣] : «لا أعبد آلهتكم التي تعبدون اليوم» .

٣. ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾ إلَّا هي الـذي أعبد اليوم . ومعنى ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ : مَن أعبد ، ولكنه مقابل قوله : ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ ؛ أي من الأصنام . ثم حمل الثاني عليه ليتقابل[٤] .

٤. ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ ؛ يعني في ما بعد اليوم .

٥. ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ ؛ في ما بعد[٥] اليوم .

قالوا : «فلمَّا قرأ رسول الله ﷺ هذه السورة عليهم علموا[٦] أنه قد تبرأ منهم فيئسوا منه ، وشتموه ، وآذوه» .

وقال[٧] ابن عباس : «وهذه السورة براءة من الشرك»[٨] .

وروي أن رسـول الله ﷺ قال لرجل : «إذا أويت إلى فراشـك فاقرأ : ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فإنها براءة من الشرك»[٩] .

---

(١) الوسيط ٤/ ٥٦٥ .
(٢) الوسيط ٤/ ٥٦٥ .
(٣) ما بين القوسين ساقط من (أ) .
(٤) بياض في (ع) .
(٥) في (أ) : (بعد) .
(٦) في (أ) : (علم) .
(٧) في (ع) : (قال) .
(٨) ورد معنى قوله في النكت والعيون ٦/ ٣٥٨ ، وحاشية زاد المسير (النسخة الأزهرية) ٨/ ٣٢٢ .
(٩) الحديث أخرجه الدارمي في سننه في كتاب فضائل القرآن ، باب (٢٣) ٢/ ٩١٥ ح ٣٣٠٢ من حديث زهير عن أبي إسحاق عن فروة بن نوفل عن أبيه ، والإمام أحمد في المسند ٥/ ٤٥٦ من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق ، وأبو داود في سـننه في كتاب الآداب ، باب : ما يقول عند النوم ٢/ ٦٦١ من طريق =

قال أبو إسحاق : «نفى رسول الله ﷺ بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه في الحال ، وفي ما يستقبل ، (ونفى عنهم عبادة الله في الحال وفي ما يستقبل)»[(١)] ، قال : «وهذا في قوم أعلمه الله أنهم لا يؤمنون ، كقوله في قصة نوح : ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود :٣٦]»[(٢)] .

ونحو هذا قال أبو عبيدة[(٣)] ، والأخفش[(٤)] في وجه تكرار الكلام في هذه السورة .

وشرحه ابن الأنباري فقال حاكياً عن أحمد بن يحيى : «معنى التكرار فيه أنه أراد ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الساعة ، وفي هذا الوقت ، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ في هذا الوقت أيضاً ، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ في ما أستقبل ، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ في ما تستقبلون[(٥)] . فحسن التكرير لاختلاف المعاني» .

= شعبة عن أبي إسحاق عن رجل ، والترمذي في سننه في كتاب الدعوات ، باب (٢٢) ٥/ ٤٧٤ ح ٣٤٠٣ . قال أبو عيسى : «وروى زهير هذا الحديث عن أبي إسحاق عن فروة بن نوفل عن أبيه عن النبي ﷺ نحوه ، وهذا أشبه وأصح من حديث شعبة ، وقد اضطرب أصحاب أبي إسحاق في هذا الحديث» . وورد أيضاً في الدر المنثور ٨/ ٦٥٧ ، وزاد السيوطي في نسبته إلى ابن أبي شيبة ، وابن الأنباري في المصاحف ، والحاكم وصحَّحه ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٤٩٨ ح ٢٥٢٠ عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعي عن أبيه . وورد بمعناه في تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٩٩ منسوباً إلى أحمد ، والطبراني في الأوسط عن الحارث بن جبلة .

(١) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٣٧١ .

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٣١٤ .

(٤) ورد قوله في النكت والعيون ٦/ ٣٥٨ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢٢٨ ، وفتح القدير ٥/ ٥٠٦ .

(٥) لم أعثر على مصدر لقوله . وقد علَّق الشوكاني في فتح القدير ٥/ ٥٠٧ على ما ذكره أبو عبيدة ، والأخفش ، وابن الأنباري ، قال : «وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف ، فإن جعل قوله : ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ للاستقبال ، وإن كان صحيحاً على مقتضى اللغة العربية ، ولكنه لا يتم جعل قوله : ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ للاستقبال ، لأن الجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات في كل الأوقات ، فدخول النفي عليها يرفع ما دلت عليه من الدوام والثبات في كل الأوقات ، ولو =

وقال صاحب النظم : «إنما كرر ، لأنه جوزي به الكلام الذي كان هذا جوابه ، لأنهم قالوا للنبي ﷺ : تعبد آلهتنا لمدة ذكروها ، ونعبد إلهك ، ثم تعبد آلهتنا مدة ، ونعبد إلهك ، فأجيبوا برد ذلك ودفعه على المثال الذي تكلموا به»[(١)] .

وقال ابن قتيبة : «إن من مذاهب العرب التكرار إرادة التوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز ، ولا موضع أَولى بالتكرار للتوكيد من الذي نزلت فيه : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ، لأنهم أرادوه على أن يعبد ما يعبدون ، ليعبدوا ما يعبد ، أبدؤوا في ذلك وأعادوا ، فأراد الله حسم أطماعهم ، قال : وفيه وجه آخر :

وهو أن القرآن كان ينزل شيئاً بعد شيء ، وآية بعد آية ، جواباً لهم يسألون ، ورداً عن النبي ﷺ فكأن المشركين قالوا (له)[(٢)] : [أسلم][(٣)] ببعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك ، فأنزل الله : ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ لأني لا أفعل ما قلتم .

= كان حملها على الاستقبال صحيحاً للزم مثله في قوله : ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ وفي قوله : ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخريتين على الحال ، وكما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس ، لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل اسمية مصدرة بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل في ما بعده ؛ منفية كلها بحرف واحد ، وهو لفظ (لا) في كل واحد منها ، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة» .

(١) لم أعثر على مصدر لقوله .

(٢) ما بين القوسين ساقط من (أ) .

(٣) في (أ) و(ع) : (استلم) ، والمثبت من مصدر القول .

ثم غبروا[١] مدة فقالوا : تعبد آلهتنا يوماً ، أو شـــهراً ، أو حولاً ، ونعبد إلهك يوماً ، أو شـــهراً ، أو حولاً ، فأنـــزل : ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي على شريطة أن تؤمنوا به [في][٢] وقت ، وتشركوا به في وقت[٣] .

أي لا أعبد آلهتكم على ما تشـــارطون ، ولا أنتم أيضاً عابدون إلَّاهي[٤] على هذه الشريطة ، لأني لا أفعل ما تشترطون ، قال[٥] : (وهذا تمثيل أردت أن أريك به موضع الإمكان)»[٦] .

٦. قوله : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ . قال (ابـــن عباس[٧] و) المفسرون[٨] : لكم كفركم بالله ، ولي التوحيد والإخلاص له» ، قالوا : «وهذا قبل أن يؤمر بالحرب ، ثم نسخ هذا التسليم بآية القتال»[٩] .

---

(١) غبر الشيء غبوراً : مكث وذهب . انظر : لسان العرب (غبر) ٥/ ٣ .

(٢) ما بين المعقوفين ســـاقط من كلتا النســـختين ، وأثبت ما جاء في مصدر القول ؛ لاستقامة الكلام به ، وانتظامه .

(٣) ورد في تأويل مشكل القرآن ٢٣٧ ، ٢٣٨ بتصرف يسير .

(٤) في (ع) : (الهي) .

(٥) أي ابن قتيبة .

(٦) ما بين القوسين قول ابن قتيبة . انظر : تأويل مشكل القرآن ٢٣٩ .

(٧) التفسير الكبير ٣٢/ ١٤٧ .

(٨) حكاه عن المفسرين ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٣١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٢٣ ، وقال به أيضاً السمرقندي في بحر العلوم ٣/ ٥٢١ ، والثعلبي في الكشف والبيان ١٣/ ١٧٠ب .

(٩) وممن قال أيضاً بأنها منســـوخة بآية السيف هبةالله في الناسخ والمنسوخ من كتاب الله عز وجل ٢٠٦ ، والبارزي في ناسخ القرآن العزيز ومنســـوخه ٥٨ ، وابن طاهر البغدادي في الناسخ والمنسوخ ١٦١ . وقد ردَّ ابن الجوزي دعوى النســـخ فيها ، قال : «قال الأكثرون نســـخت بآية السيف ، ثم قال : وإنما يصح هذا لو كان المعنى : قد أقررتكم على دينكم ، وإذا كان لم يكن المفهوم هذا بعد النســـخ» . انظر : المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ ٥٩ ، ونواسخ القرآن ٢٥٣ . وردَّه أيضاً حلمي كامل ؛ محقق كتاب البغدادي ناسخ القرآن العزيز ١٦١-١٦٥ ؛ فقد بيَّن أنه لا تعارض بين الآية وآية الســـيف ، وهو ما لا يدعو إلى القول بالنسخ ، قال : «والقول بالنسخ متعارض من كل وجه لا يمكن معه الجمع بين الآيتين ، لا مسوغ له ، ولا يصار إليه» .

وقال أهل المعاني : «معنى الآية : لكم جزاؤكم على عبادة الوثن ، ولي جزائي على عبادة ربي ، وعلى هذا ، يكون الدين بمعنى الجزاء ، ويجوز أن يكون على تقدير المضاف لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني»[١] .

وحسبك بجزاء دينهم وبالاً وعقاباً ، كما حسبك بجزاء دينه إمتاعاً وثواباً .

* * *

(١) لم أعثر على مصدر لقولهم ، وقد ورد بمعناه غير منسوب في الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢٢٩ .